# التطور التاريخى للسياسة الفرنسية
# فى أعالى النيجر

دكتور/ نصر الدين رشوان حسن

واجهت فرنسا فى خلال السبعينات من القرن التاسع عشر بعض الضغط لأن تدفع بوزارة البحرية ، المسئولة عن شئون المستعمرات ، الى تبنى سياسة توسعية فى غرب أفريقيا ، فى حين أن الاتجاه الغالب فى فرنسا كان نحو اعطاء أسبقية أولى فى سياستها الخارجية الى استعادة قوتها ونفوذها فى أوروبا بعد هزيمة ٧٠ — ١٨٧١ ، كما أن كثيرين من الفرنسيين أظهروا اتجاها معاديا تماما لأى سياسة توسعية • وكانت وزارة الخارجية تتبنى الاتجاه الأخير وتصر على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع بريطانيا كنقطة بداية نحو استعادة مكانة فرنسا على المستوى الدولى[1] •

وقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاها نحو اقامة المشروعات الكبيرة عبر القارات لخدمة التجارة والتوسع الاستعمارى ، وبالنسبة لفرنسا فقد كانت تسعى الى اقامة خط سكة حديد بين سان لوى والنيجر يمكنها من التوغل بفاعلية فى أسواق غرب أفريقيا ، لكن اقامة مثل هذا الخط تتطلب تأمينه باخضاع المناطق التى يمر بها واقامة الحصون فيها • وكان هناك اعتقاد فى فرنسا بضرورة أن تسبق بريطانيا

(1) HARGREAVES : Prelude to the Partition of West Africa pp. 198, 9.

الى هذه المنطقة فى حين أن البريطانيين فى سيراليون كان اهتمامهم بأعالى النيجر متواضعا ، وهذا يعنى من جهة أخرى أن فرنسا ستعفى نفسها من حرج مواجهة مشكلات دولية حادة • كذلك فلن تكون هناك معارضة داخلية كبيرة حيث أن التقدم فى هذه المناطق لا يتطلب ارسال قوات كبيرة من فرنسا نفسها على عكس الحال بالنسبة لغزو مصر أو تونس • ومما أغرى الداعين للاستعمار للاستمرار فى هذا الاتجاه أن كليمنصو المشهور بمعارضته للاستعمار لم يتعرض لدعاة الاستعمار الذين كانوا دائمى الاشادة بما أسموه الأعمال البطولية لعدد محدود من الفرنسيين الذين يعملون وسط شعوب « بربرية ومتعصبة » • وكان من حسن حظ هؤلاء أن تولى وزارة البحرية الفرنسية فى عام ١٨٧٩ الاميرال جويجبيرى ( Jaurégiberry ) حاكم السنغال السابق[٢] •

وقد مهد الجو لتقبل الاتجاه نحو الاستعمار بعض الجغرافيين والناشرين الفرنسيين الذين كانوا يواصلون الحديث عن مزايا الحصول على المستعمرات وكان من أشهر هؤلاء لوروى بوليو Leroy - Beaulieu ولكن مع ذلك ظل الاتجاه العام لدى الفرنسيين غير عابىء بهذه الدعوة واستمر الحال على ذلك حتى عصر بداية التكالب والمنافسة بين الدول الأوروبية للحصول على المستعمرات[٣] •

وقد تميزت السياسة الخارجية الفرنسية خلال الثمانينات بالتضارب بين وزارة الخارجية ووزارة البحرية التى كانت تضم ادارة خاصة بشئون المستعمرات ، وازداد هذا الصراع حدة بانشاء سكرتارية دائمة ومسئولة عن ادارة وتوسيع المصالح الاستعمارية الفرنسية ، وتزايد نفوذ هذه السكرتارية حتى أصبحت فيما بعد نواة لقيام وزارة المستعمرات • وعلى أى حال فان وزارة البحرية بالتضافر مع السكرتارية

---

(2) HALLET : Africa since 1873, pp. 267 - 8.

(3) HARGREAVES : op. cit., p. 200.

المذكورة عملت على تدعيم مطالب فرنسا ازاء النيجر أكثر مما فعلته وزارة الخارجية الفرنسية التى كانت على دراية أكثر والمام أعمق بحقيقة العلاقات المعقدة مع بريطانيا فى الكثير من المسائل المتعلقة بمشكلات الساحل(٤) •

وكان من العوامل المؤثرة فى سياسة فرنسا قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية فى الثمانينات للتوسع الاستعمارى ، وقد أدى هذا الى اعتماد المسئولين الفرنسيين فى تقرير سياستهم على خبرة عدد من المسئولين فى ادارة المستعمرات أو على المعلومات التى يحصل عليها مكتب

( Bureau du Haut - Fleuve et du Niger )

الذى أنشىء فى عام ١٨٨١ • وكان لفرنسا قنصل نشيط فى براس ( Brass ) على نهر النيجر يدعى انطوان ماتى Antoine Matei عمل على الحصول على معاهدات من زعماء هذه المنطقة ولما علم بذلك المسيو ( Duclerc ) وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٨٣ وكان حديث عهد بالوزارة ، أحال الأمر برمته الى جوريجبيرى وزير البحرية الذى أقر ماتى على خطته وزوده بعدد من التعليمات والمبادىء لمراعاتها فى المعاهدات التجارية التى يوقعها مع الزعماء الافريقيين فى نهرى النيجر وبنوى ( Benue ) (٥) •

كانت سياسة فيديرب ( Faidherbe ) حاكم السنغال السابق فى الستينات تهدف الى أبعاد أسواق السودان الغربى عن أيدى بريطانيا واتبع فى ذلك سياسة تهدف الى أبعاد التكرور عن أعالى السنغال واحتلال وادى السنغال — النيجر والاستيلاء على باماكو • كذلك فان بريير دى ليل ( Briére de L'isle ) حاكم السنغال اللاحق كان يهدف

---

(4) NEWBURY : The map of Africa by treatey, vol. 11, p. 16.

(5) NEWBURY : Ibid, pp. 18 - 20.

أيضا الى اقامة امبراطورية رسمية فى السودان الغربى باقامة خط من الحصون يصل الى النيجر اعتمادا على العمل العسكرى وحاول اخراج فرنسا عن السياسة التى التزمت بها حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى سياسة التدعيم والاقتصاد والسلام ( Consolidation, economy and peace ) وذلك بسبب ما نتج عن الحروب السبعينية ورغبة فرنسا فى عدم الدخول فى أية ارتباطات مالية خارج حدود فرنسا يمكن أن تؤثر على استعداداتها العسكرية وأمنها فى أوروبا ذاتها[٦] .

وفى عهد فرسينيه ( Freycinet ) الذى تولى رئاسة الوزارة الفرنسية فى ديسمبر ١٨٧٩ ظهر التحول واضحا نحو الرغبة فى التوسع واعتبر أن من مهام وزارته أن تحول أنظارها الى خارج الحدود وأن تبحث أية فتوحات سلمية يمكن أن تقوم بها[٧] .

وبالفعل أقام جوريجبيرى قيادة عسكرية خاصة فى سنة ١٨٨٠ تولاها بورنى ديسبورد ( Borgnis Desbordes ) وهو ضابط مدفعية مشهور بعنفه ، لم يلتزم دبيورد بالسياسة السليمة السابقة بل أعلن أن الغزو السلمى للنيجر ليس الا خرافة ، ولابد من غزوه عسكريا ، وفى فبراير ١٨٨٣ وصل الى باماكو وأقام فيها حامية عسكرية . وكان الوضع حول باماكو يتمثل فى وجود دولة أحمدو التكولورية فى الشمال ، ودولة ساموری فى الجنوب والشرق ، وفى الغرب فى المنطقة الواقعة بين السنغال وجامبيا كان هناك زعيم دينى جديد هو محمدولامين الذى بدأ عهدا من الفتوحات وبدأ يهاجم المواقع الفرنسية فى باكل ( Bakel ) وكان الأمر يتطلب من فرنسا اتباع سياسة تستطيع مواجهة هذا الموقف

---

(6) NEWBURY : The development of French Policy in the Lower and Upper Niger, p. 259.

(7) NEWBURY : op. cit., p. 262.

لكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت تخصيص مزيد من الأموال للحملات العسكرية وعاد ديبورد الى فرنسا وتبعه خلفاء أقل منه اندفاعا[٨] •

كان من الواضح أن جوريجبيرى لم يلتزم بالسياسة السلمية لرئيس الوزراء وصديقه فرسينيه وكان يهدف فى الحقيقة الى السيطرة السياسية لا التوسع التجارى أو الاقتصادى ومع ذلك فقد التزم أمامه من الناحية الرسمية بأنه يرغب فى الاشتراك فى الحركة العامة التى تحمل الدول الأوروبية الى قلب أفريقيا لتفتح فيها أسواقا جديدة لتجارتها[٩] •

جاء جاييني ( Callieeni ) خلفا لديبورد ، وكان بريبردى ليل قد سبق أن أرسله فى ١٨٨٠ فى مهمة الى احمدو لتوقيع معاهدة صداقة وتجارة معه وكان الهدف من هذه المهمة هو اعطاء التكولوريين شعورا زائفا بالأمن مما سهل احتلال وادى السنغال — النيجر •

ومن ثم فان جاييني عندما تولى قيادة منطقة السنغال — النيجر لم يكن جديدا على المنطقة • كان جاييني يتميز بثقافته الواسعة ويختلف كلية عن زملائه من الضباط الفرنسيين فى نظرته للمشكلات المتعلقة بالادارة الأستعمارية ، وكان لا يخالجه أدنى شك فى مسئولية بلاده التى ألزمت بها نفسها فيما أسمته بالمهمة الحضارية ( Mission Civilisatrice ) وكان لا يؤمن بالاندفاع فى الغزو بل يرى ضرورة أن تؤكد فرنسا وجودها فى أى منطقة اذا ما غزتها • ولهذا اعتبر الحصول على المعلومات مسألة حتمية • وكان يقول ان الضابط الذى يستطيع أن يضع خريطة بشرية ( Ethnographic map ) للمنطقة التى يتولاها انما يسير بخطى ثابتة نحو اقامة السلام الكامل فيها •

---

(8) HAUET : cit., p. 269.

(9) NEWBURY : French Policy, p. 262.

« Prendre part au mouvement génément général qui de L'Afrique pour y ouvrir de neuveaux debouchés à leur commerce ».

وقد أوصى جاييني خليفته أرشينار ( Archinard ) بقوله علينا أن ننظر الى هؤلاء الزعماء ويقصد أحمدو زعيم التكولور وساموري — على أنهم قوم يجب أن يختفوا من مسرح الأحداث فى أقرب وقت • وهذا الهدف يتحقق بالخديعة وبالتسلل وليس بالصراع المباشر • وقد نجحت السفرات الدبلوماسية التى أرسلها الى هذين الزعيمين فى اقامة تعايش وفى قبول الحماية الفرنسية • وبينما كان جاييني ينادى بالسلام كان يساعد أعداء أحمد وساموري بتقديم الهدايا من السلاح • واعتبرت سياسته سياسة ثورية لأنه لم يعمل على اقامة العلاقات مع الحكام بل اهتم باقامة الاتصال بالجماهير التى كان يرى أن مصالحها تتفق مع مصالحهم ، والتى هى على استعداد لتفهم هذه النظرة فيما لو أخذت فرنسا على عاتقها أن توضح هذا الأمر لهم •

وعندما غادر جاييني السودان فى علم ١٨٨٨ سلم الى من يخلفه مساحة من الأراضى وقد تدعم عليها نفوذ فرنسا • ورغم أنها لم تتضمن فتوحات جديدة كبيرة الا أن الضباط الفرنسيين استطاعوا القيام برحلات كشفية ، ومن أهمها رحلة الكابتن بنجيه ( Binger ) عام ٨٨ — ١٨٨٩ حيث اكتشف المنطقة الواقعة بين أعالى النيجر ونهر الفولتا •

لكن أرشينار خليفته لم يتبع سياسته بل سار على سياسة ديبورد وكان ضابطا طموحا ، وكان حسن الحظ اذ أن فرنســا فى ذلك الوقت ، ١٨٨١ ، اتخذت سياسة ايجابية نشطة بخلاف تلك التى كانت سائدة فى منتصف الخمسينات • استبعد أرشينار سياسة جاييني التى كانت تقضى بالانتظار حتى تنهار مملكة التكولور بعد موت أحمدو ، وحصل على اذن من باريس فى عام ١٨٩٠ بمهاجمة سيجو ( Segu ) عاصمة التكولور ثم نيورو ( Nioro ) المدينة الثانية فى ١٨٩١ • وفى عام ١٨٩٨ هرب أحمدو شرقا مع بعض من أتباعه وتوفى وهو فى طريقه الى سوكوتو Sokoto • اتجه أرشينار بعد ذلك — مخالفا التعليمات الرسمية —

الى مهاجمة ساموری ، الذی کان فی وضع أفضل من أحمدو وکانت لدیه قدرة أکبر علی الصمود فی وجه الهجوم الفرنسی[١٠] •

وکانت السیاسة الفرنسیة فی غرب أفریقیا قد أخذت قدرا کبیرا من التدعیم ، فی عام ١٨٨١ عندما قام جامبتا Gambetta بانشاء وزارة جدیدة للتجارة والمستعمرات[١١] کما أن احتلال بریطانیا لمصر فی عام ١٨٨٢ کان له أثر عمیق علی الاتجاه العام للعلاقات البریطانیة — الفرنسیة کما أنه سهل اتخاذ سیاسات معادیة لبریطانیا بصورة أکثر سفورا ، ولکن هذه السیاسات کانت تهدف الی تدعیم مرکز فرنسا فی غرب افریقیا ولیس طرد بریطانیا من مصر[١٢] •

تمیز غزو فرنسا لغرب أفریقیا بالطابع العسکری أکثر مما تمیزت به بریطانیا ، وفی أعالی النیجر بصفة خاصة تمیز العسکریون الفرنسیون بحریة العمل کما لاحظنا ذلك فی العرض السابق • واهتم الفرنسیون بمساحة الأرض أکثر من اهتمامهم بنوعیتها • وکما قال ( Brunscbwig ) فان غزو غرب أفریقیا أتاح فرصا کبیرة للترقیة والنیاشین للعسکریین ، لکن هؤلاء العسکریین بحکم تکوینهم غیر صالحین لمفاوضات السلام[١٣] • کانت فرنسا مقیدة باستراتیجیة شاملة تقضی بربط نقاطها الساحلیة بالأراضی التی حصلت علیها فی السودان وأن تحتل من النیجر القدر الذی یوصلها الی میناء یتصل بالمنطقة الصالحة للملاحة من نهر النیجر حتی المحیط •

اما بریطانیا فقد کانت زاهدة فی الحصول علی مستعمرات وذلك

(10) HALLET : op. cit., pp. 268 - 270.

(11) NEWBURY : Fresch Policy, p. 268.

(12) NEWBURY : Ibid, pp. 268 - - 271.

(13) BRUNSCHWIC, Henri : Mythes et realités de l'imperialism colonial Francais, 1871 - ( Paris, 1960 ), pp. 163 - 170.

طوال السنوات العشر التالية لمؤتمر برلين ( ٨٤ — ١٨٨٥ ) ولم تتبع بريطانيا سياسة ايجابية فى أفريقيا الا فى عهد جوزيف تشمبرلين فى عام ١٨٩٥ عندما كان وزيرا للدولة لشئون المستعمرات ، واعتبر الغـزو العسكرى بديلا عن الحصول على معاهدات • والى ما قبيل ذلك الوقت كانت طلبات التدخل المسلح من جانب الاداريين أو التجار البريطانيين تقابل بالرفض • ومع أن تشمبرلين كان على استعداد للموافقة عـلى استخدام القوة الا أنه كان حريصا على أن تكون له اليد العليـا على القادة العسكريين ، فى حين كان العسكريون الفرنسيون عادة يملـون سياساتهم على حكوماتهم • وبذلك فان المناطق التى طالبت بها بريطانيا هى المناطق التى كان يعمل فيها تجارها بصورة نشطة أو تلك المناطق التى رأوا فيها ربحا فى المستقبل • وبينما كان العلم يسبق التجارة بالنسبة لفرنسا ، فان التجارة كانت تسبق العلم بالنسبة لبريطانيا أو أن العـلم كان يوجه الى حيث ينبغى له ، ونتج عن ذلك أن استولت بريطانيا فى غرب أفريقيا على مساحة أقل ولكنها أكثر غنى[١٤] •

وفيما يتعلق بما أشيع فى الدوائر الفرنسية عن التهديد البريطانى لأعالى النيجر فان المسئولين البريطانيين لم يبدوا اهتماما كبيرا به بل أنهم أبـدوا دهشـة لمـا قرأوه فى الجريـدة الرسـمية الفرنسـية ( Journal Officiel ) عن السياسات الفرنسية ونظروا اليه بحسد من أن الحكومة تستطيع أن تحصل على موافقة برلمانية على هذه المشروعات الطائلة التكاليف • ولكن عندما تحدثت احدى الصحف الفرنسية عن السعى الى أسواق بلاد الهوسـا عن طريق السنغال ، رد صـمويل رو (Samuel Rowe) حاكم سيراليون بأنهم سيصلون الى بلاد الهوسا عن طريق لاجوس قبل أن يصل اليها الفرنسيون بأمد بعيد ، الا أنه رأى الخطر الحقيقى فى احتمال أن يعوق استيلاء فرنسا على بعض المناطق

---

(14) CROWDER : West Africa under Colinial Rule, pp. 69 - 70.

القريبة ، قوافل تجارة سيراليون من الوصول الى النيجر أو أن يحد من اتساعها فى المستقبل •

وفى منتصف الثمانينات شهدت منطقة أعالى النيجر سكونا من جانب كل من بريطانيا وفرنسا على السواء ، ففى مارس ١٨٨٥ ترك جول فيرى ( Jules Ferry ) رئاسة الوزارة الفرنسية عقب هزيمة فرنسا فى الهند الصينية • ولم يكن هناك أحد فى فرنسا يستطيع أن يطلب تخصيص نفقات لحملات عسكرية لهذه المنطقة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تواجه مقاومة شديدة من الزعماء الوطنيين الافريقيين ، حيث أن استيلاءهم على باماكو فى ١٨٨٣ قد جعلهم وجها لوجه أمام مناضل عنيد فى أعالى النيجر هو ساموری ، زيادة على ذلك فان لجوء القوات الفرنسية الى استخدام السخرة والعمل الاجبارى دون أجر قد أثار عليهم مشاكل داخلية فى فرنسا(١٥) •

لقد سبب ساموری للفرنسيين الكثير من القلق بسبب اتجاهه الى الحاكم البريطانى فى سيراليون عارضا عليه قبول الحماية البريطانية فى مقابل ضمان امداده بالأسلحة النارية • ولما خشى الفرنسيون أن تقع منابع نهر النيجر تحت سيطرة البريطانيين بعثوا بالرسل الى ساموری فى عامى ٨٦ ، ١٨٨٧ وزعموا فى كل مرة أنهم حصلوا على توقيعه على معاهدات بقبول حمايتهم • وبصرف النظر عما دار فى هذه المحادثات فان ساموری بالتأكيد لم يكن ينتوى التفريط فى استقلاله وسيادته ، لكن الحكومة البريطانية أقرت بهذه الاتفاقيات بهذا المفهوم ولم تتدخل عندما قررت فرنسا فى النهاية أن تكسر شوكة هذا الزعيم العنيد •

---

(15) HARGREAVES : op. cit., p. 339.

كان اهتمام بريطانيا فى الحقيقة منصبا على الجزء الأدنى من نهر النيجر ابتداء من بوسا ( Boussa ) حتى المصب وهى المنطقة الصالحة للملاحة ، والعمل على ابعاد الفرنسيين عن هذا الجزء الهام وبالتالى ابعادهم عن الوصول الى قلب بلاد الهوسا •

ولم يقلل من اهتمام الدولتين بالملاحة فى نهر النيجر النصوص التى أقرتها الدول الأوروبية فى مؤتمر برلين ، والتى تقضى فى المادة ٢٦ من الفصل السابع من اتفاق مؤتمر برلين الموقع فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ بحرية الملاحة فى نهر النيجر بكل فروعه ومخارجه للسفن التجارية لجميع الدول على قدم المساواة فيما يتعلق بنقل البضائع والأشخاص[١٦] • ولا شك أن مرد اهتمام هذه الدول أن النصوص القانونية ليست أكثر من حبر على ورق فى حالة قيام المنازعات الدولية وأن أوضاع القوة الحقيقية والواقعية هى التى تفرض نفسها فى النهاية فى تسوية المنازعات ، كما أن بريطانيا وفرنسا كان كل منهما حريصا على أن يكون الجزء الأدنى من نهر النيجر طريقا للوصول الى الداخل والسيطرة على هذه المناطق الهامة التى تتميز بكثافة سكانية تفوق فى تعدادها مجموع عدد السكان فى غرب أفريقيا كلها وبالتالى أهميتها كسوق تجارية لبضائع هذه الدول •

وبالنسبة للنزاع فى أعالى النيجر وأواسطه فلقد بدا لبعض الوقت فى عام ١٨٩٢ احتمال حل النزاع بين انجلترا وفرنسا على الحدود بين مناطق النفوذ غرب وجنوب أعالى النيجر وأواسطه • واقترحت اللجنة المشكلة لهذا الغرض حلا وسطا بتقسيم المنطقة المتنازع عليها وفقا لخط يبدأ من ساى ( Say ) على نهر النيجر متجها جنوبا بغرب الى بندوكو ( Bonduku ) على نهر الفولتا ، فما يقع شمال هذا الخط وغربه يكون لفرنسا وما يقع جنوبا بشرق يكون من نصيب بريطانيا • لكن فرنسا

---

(16) HERTSLET : The map of Africa by treaty, p. 481.

رفضت الاتفاق وكان لتجدد الخلافات بين الدولتين حول النيل أثره فى اعاقة الاتفاق على النيجر •

وكعادة البريطانيين فى تحقيق أهدافهم من خلال طرف ثالث ، طلبت بريطانيا من ألمانيا فى سنة ١٨٩٣ أن توقف أية محاولات جديدة للفرنسيين بمد مطالبهم شرق بحيرة تشاد ، وقد وافقت بريطانيا فى المعاهدة التى وقعتها مع ألمانيا فى تلك السنة على أن يمتد ظهير الكميرون الألمانى شمالا الى بحيرة تشاد ، كما يتضمن أن تشمل منطقة النفـــوذ الألمانية كل حوض نهر شارى الممتد من بحيرة تشاد شرقا حتى الحدود الغربية للسودان المصرى • وكان هدف البريطانيين من اطلاق يد الألمان فى هذه المناطق الشاسعة من وسط غرب أفريقيا منع الفرنســيين من الوصول الى أعالى النيل من أعــالى النيجر والكنغــو • وقد احتــج الفرنسيون بأن هذا الاتفاق يقضى بقيام مناطق نفوذ بريطانية وألمانية شاسعة تحول بين القواعد الفرنسية فى الجزائر والســنغال وأعالى النيجر وقواعدها فى الكنغو • كما أن هذا الاتفاق سيقضى على آمال الفرنسيين فى ربط ممتلكاتهم فى غرب أفريقيا بممتلكاتهم على ساحل البحر الأحمر •

أصبحت المناوشات على الحدود الشــمالية من منطقة النفــوذ البريطانية على النيجر جزءا من النزاع الأكبر حول أعالى النيــل • ومن ثم فان المطالب التجارية لشركة النيجر ( Niger Company ) البريطانية خدمت بصورة غير مباشرة المصالح العليا لبريطانيا والمتعلقة بأمن مصر • لكن فرنسا قلبت سريعا خطط بريطانيا باتفاقها ( فرنسا ) مع ألمانيا فى مارس ١٨٩٤ عندما قبل الألمان تسليم منطقة نفوذهم فى الكميرون بالتالى الى فرنسا ، وبذلك فتحوا الطريق مرة أخرى الى أعالى النيل • ولقد كان من العلامات على ضعف اهتمام بريطانيا نســبيا بغرب أفريقيا أن وزارة الخارجية البريطانية كان عليها فى سنة ١٨٩٣ أن تعتمــد على

اثارة ألمانيا للتحرك ، تماما كما اعتمدت على تحريك البرتغال فى مسألة الكنغو قبل ذلك بعشرة أعوام[١٧] .

أخذت الصراعات بين انجلترا وفرنسا فى غرب أفريقيا تزداد حدة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ولم تفلح الاتفاقيتان المعقودتان بين الدولتين فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩ ، ٢٦ يونية ١٨٩٢ فى استمرار الوفاق بين الدولتين ، ويقول الفرنسيون أنه بالرغم من الاتفاق بينهما على تخطيط الحدود على الورق الا أن المندوبين البريطنيين كانوا يثيرون فى مجال التنفيذ الواقعى الكثير من العقبات . وأصبحت الخلافات بين قوات الدولتين فى أفريقيا متوقعة والمصادمات محتملة ، وقد وقعت احدى هذه المصادمات بالفعل بين قوات الدولتين قرب وائيما ( Waima ) فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٣ عندما أطلقت قوة فرنسية بقيادة الملازم مارتيز (Maritz ) النار على قوة انجليزية كانت تظن أنها تابعة لساموری ، وعندما تدارك الطرفان الخطأ كان اثنى عشر فردا من كلا الجانبين قد لقى حتفه وكان من بينهم الملازم الفرنسى مارتيز والكابتن الانجليزى لندى ( Lendy ) . وبعد ذلك بثلاثة شهور تكرر وقوع حادث مماثل فى المنطقة نفسها فى سامو ( Samoh ) . ولم تؤثر مثل هذه الحوادث على العلاقات بين البلدين ، واعتبرت من الأمور التى لا يمكن تفادى وقوعها فى مثل هذه المناطق المجهولة[١٨] .

وحتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حققت الحملات العسكرية والمفاوضات والبعثات الفرنسية الى السودان الغربى — بصرف النظر عن الصراع بينها وبين انجلترا — عدة نتائج من وجهة نظر فرنسا تتمثل فى تمكنها من القضاء على دولة التكولور ودولة ساموری ، والاتصال المباشر بالشعوب التى كانت خاضعة لهاتين الدولتين ، وزيادة

---

(17) RCBINSON : Africa and the Victorians, pp. 391 - 392.

(18) DARCY : France et Angleterre, p. 276.

مساحة السودان الفرنسى بحوالى ٦٥٪ من مساحه فى خلال السنوات الثلاث من ٩٠ — ١٨٩٣ ، وفرض الحماية الفرنسية على دولة تيبـــا ( Tieba ) وفوتا جالون وكونج والموسى ، وربط السنغال والانهـار الجنوبية والسودان بساحل غينيا ، وتقليص حجم مستعمرتى جامبيـا وسيراليون الانجليزيتين وغينيا البرتغالية وتوجو الالمانية وجمهـورية ليبيريا بحيث أصبحت هذه جميعا دولا ساحلية دون أن تكون لها مطالب متعلقة بالظهير القارى ( Hinterland ) [١٩] .

والواقع أن كلا من فرنسا وبريطانيا كان يجمعها اعتقاد مشترك فى شرعية الغزو العسكرى تحت دعاوى مختلفة ، لكن الواقع يؤكد أنهم فرضوا نظم حكم أشد قسوة من نظم الحكم الوطنية وأدى الغزو الى ازهاق الكثير من الأرواح . وقد قوبل الغزو بمقاومة من القوى الوطنية والدويلات القائمة فى ذلك الوقت خاصة تلك التى يحكمها زعماء مسلمون والذين اعتبروا فرصة حكم البعض فى نظرهم معناه الخضوع لغـير المؤمن وهو أمر غير مقبول ، وهذا يفسر شراسة المقاومة التى واجهت فرنسا فى تلك المنطقة[٢٠] . وهى مقاومة لها وزنها واعتبارها فى مواجهة الأسلحة الحديثة وعدم التكافؤ بين الطرفين وان كان القواد الفرنسيون يميلون دائما الى المبالغة فى حجم القوات الافريقية التى يواجهونها حتى يكون لهم التقدير لدى السلطات فى باريس وليكون ذلك طريقا لهم الى الترقى[٢١] .

كان فى مقدور الدويلات الافريقية أن تكون أكثر فاعلية فى مواجهة الغزو الفرنسى ، ولكن عوامل الخوف والشك والمنافسة كانت تسيطر على

---

(19) ARCHINARD : Le Sénégal et le Soudan Français, p. 233.

(20) CROWDER : op. cit., pp. 71 - 72.

(21) UKPABI : Wost Africa and Europe in military confrontation, p. 106.

العلاقات بين هذه الدويلات بعضها والبعض الآخر وتداركت فى وقت متأخر الخطر المشترك الذى يهددها وسعت الى تجميع قواها لمواجهة الغزو الأجنبى •

ومن الأمثلة على ذلك العلاقات بين ساموري ثورى وتيبا ، وكانت علاقات سيئة بسبب اختلاف أطماع كل منهما وقد أدى هذا الاختلاف الى مواجهات عسكرية ، اذ قام ساموري بحملة ضد سيكاسو عاصمة دولة تيبا استمرت عدة شهور وخسر فيها الطرفان خسائر ضخمة فى الأرواح وفشل الحصار وعاد ساموري أدراجه •

وعمل حكام التكولور على ازالة الخلافات بين ساموري وتيبا وأدخلوهما فى تحالف معهم وكان هذا التحالف قائما على أساس الاعتراف المتبادل باستقلال كل منهم وسيادته على أرضه ، واقتصر التحالف على التضامن في وجه الغزو الفرنسى لبلادهم • وتعد سياسة حسن الجوار التى قامت بينهم بعد التحالف دليلاً على امكان التعاون بين هذه الممالك الاسلامية برغم اختلاف انتماءات هذه الدويلات من حيث الطوائف الدينية •

وقد ساهم المغاربة بتقديم خدماتهم الى هذه الدويلات ، وكانت خدمات كبيرة تتناسب مع مهنة التجارة التى يحترفونها فى مختلف أنحاء غرب أفريقيا ، وكان الفرنسيون يخشون نفوذهم كمندوبين سياسيين لكل من التكولور وساموري • وقد ذكر أرشينار أحد القواد الفرنسيين أسمى اثنين منهم ممن كانت لهم مكانة عند كل من أحمدو زعيم التكولور وساموري وكان كلاهما من كبار التجار فى السودان الغربى وقد أتاح لها ذلك معرفة واسعة بأحوال المنطقة • وقد تظاهروا بالود للفرنسيين وأبدوا عدم اهتمام أو اكتراث بشئون السياسة مما جعل بعض الفرنسيين يعتبرونهم أصدقاء لهم ولم يكتشفوا حقيقتهم الا مؤخرا •

فوجىء الفرنسيون كذلك بتحول زعيم كان من أصدقائهم هو تيبا حاكم كنيدوجو ( Kénédougou ) وكان معروفا بعدائه لكل من ساموري وأحمدو • كما أن حركات المعارضة لامبراطورية التكولور التى كانت تغذيها فرنسا اكتشفت أنهم وامبراطورية التكولور نفسها كانوا ضحية لغدر فرنسا وهذا ما أدى الى خلق نوع من المصالح المشتركة بين التكولور والعناصر المناوئة لهم ، وكان دافعهم للتعاون دافعا مشتركا وهو المحافظة على كيانهم الخاص وشخصيتهم الثقافية وهو ما كان يحركهم فى الماضي ضد التكولور •

من جهة أخرى فان تعاون هذه العناصر مع التكولور لم يكن يعنى قبولهم للاسلام أو الاعتراف بشرعية سلطة التكولور عليهم ، والتغيير بالنسبة لهم فى الاستراتيجية لكن الهدف لم يتغير(٢٢) •

وبالنسبة للتكولور فان أهدافهم مختلفة عن أهداف هذه العناصر ، وبالتالى فان التعاون بينهما لم يتوقع له أن يستمر الا كما يستمر التهديد الفرنسي لكل منهما •

انضم تيبا للتحالف عندما اكتشف أن الفرنسيين يستخدمونه كأداة لتدعيم نفوذهم الاستعمارى فى السودان الغربى ، ولانقاذ دولته سارع الى الاستجابة لجهود التكولور للتوفيق بينه وبين ساموري وكان ساموري أيضا راغبا فى الوصول الى تسوية حتى يتفرغ لمواجهة التهديد الفرنسي لدولته • وهكذا تدعمت المصالحة بينهما بفضل التهديد الفرنسي والدبلوماسية الذكية التي استخدمها أحمدو حاكم التكولور • وقام التحالف أيضا بين ساموري ودولة فوتاجالون ضد فرنسا كرد فعل للتوسع الاستعماري الفرنسي • فمنذ عام ١٨٧٩ تعرض ساموري لضغط شديد من الفرنسيين كما أن اقامة المواقع الفرنسية فى الأنهار

(22) OLORUNTIMEHIN : Anti - French coalition of African states and groups in the bestern Sudan, p. 8.

الجنوبية — شمال دولة غينيا حاليا — ونشاطهم على حدود فوتاجالون نفسها جعلها تحس بعدم الأمان • وكان ساموری قد وسع حدود دولته فی ذلك الوقت لتصل الی حدود فوتاجالون وقد تبين له هو وامام فوتاجالون أن لهما قضية مشتركة ضد الفرنسيين ومن ثم فان الزعيمين أقاما منذ ٧٩ — ١٨٩٣ علاقات ودية بينهما وتعاونا ضد الفرنسيين •

فی الفتـرة السبقة لعـام ١٨٨٩ كانت العـلاقات بين التكولور وساموری وتيبا قائمة على أساس حسن الجوار ، وأدى التفاهم القائم بينهم الی أن يكونوا حلفاء أقوياء بالرغم من مكائد المسئولين الفرنسيين وقد نجح الفرنسيون فی الماضی فی تقديم أنفسهم على أنهم حماة تيبا ضـد ساموری بل وحاولوا تدبير العـداوات بين تيبا والتكولور حتی يتمكنوا من استغلال الموقف لمصلحتهم • ولم تفلح الجهود التی بذلهـا الفرنسيون فی ٨٨ ، ١٨٨٩ للوقيعة بين التكولور وتيبا • وهذه النقطـة جديرة بالملاحظة اذ أن التكولور استطاعوا أن يفوتوا على الفرنسـيين تدبيرهم ومكائدهم واستطاعوا أن يحافظوا على النوايا الطيبة بينهم وبين تيبا وهذا ما جعلهم فی موقف يسمح لهم باستخدام مساعيهم الحميدة فی التوفيق بين تيبا وساموری وأن يدخلوا كليهما فی التحالف ضـد فرنسا[٢٣] •

واصل الفرنسيون محاولاتهم لتدمير دولة التكولور بوقف امدادات السلاح عنها وتدمير نظامها الدفاعی ، وفی عام ١٨٨٩ دمروا كونديان وكان الهدف من وراء ذلك افساد العلاقات بين ساموری والتكولور • أملی هذا على التكولور أن يدركوا أكثر من أی وقت مضی الحاجة الملحة لضرورة التعاون مع التحالفات القائمة ضـد الفرنسيين • ولتحقيـق هذا الهدف أرسل أحمدو الرسل الی ساموری وامام فوتاجالون وعدد آخر من زعماء المنطقة[٢٤] •

---

(23) OLORUNTMHIN : op. cit., p. 13.
(24) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 14.

وأدى تجدد الهجوم الفرنسى ضد ساموری والدول الواقعة فى سنجامبيا الى التعجيل بمحاولة اقامة جماعة متآلفة من بين العناصر العديدة المعادية لفرنسا • وجاء الهجوم الفرنسى عقب فشل المناورات الديبلوماسية التى قامت بها فرنسا فى فبراير ومارس ١٨٨٩ بهدف تحييده حتى تطلق يدهم فى تدمير دولة التكولور •

وتعاونت كل الجماعات فى تنفيذ مخطط محاربة الفرنسيين • ومع بداية عام ١٨٩٠ كانت الجماعة المعادية لفرنسا تضم التكولور وفوتاجالون وفوتاتورو وريب والجولوف وساموری • جمعت كل هذه القوى حشدا كبيرا من القوات يقدر بعشرة آلاف رجل ، لكن التأييد الذى كانت فرنسا تجده بين حلفائها الافريقيين جعل المهمة صعبة وهذا ما حدا بأحمدو أن يحاول عزل هؤلاء الافريقيين عن فرنسا • ولهذا أرسل أحمدو رسلا الى تيبا حاكم كندوجو للتوفيق بينه وبين ساموری، وفى نفس الوقت بعث أحمدو برسل آخرين الى كانكان لمصالحة العناصر المناوئة لساموری معه •

ولكن رغم نجاح التآلف فى كسب المزيد من الأنصار نقضيته ظل الموقف دقيقا وخطيرا اذ أن تيبا والبمبرة والعناصر المعادية للتكولور استمروا فى تعاونهم مع الفرنسيين الذين يعتبرونهم أصحاب الفضل فى الحفاظ على استقلالهم ضد ساموری والتكولور • واستمر هؤلاء فى التعاون مع الفرنسين حتى عام ١٨٩١، وفى نفس الوقت وسع الفرنسيون حملاتهم ضد التكولور فى كارتا وضد ساموری وتعاملوا بوحشية مع قوات الاتحاد ومؤيديه وأعدموا كل من ثبت لديهم قيامه بأعمال لصالح هذا الاتحاد • وكانوا يشكون فى كل مسلم ويعتبرونه مملوءا بالتعصب ولم يسلم من هذا الاتهام مترجمهم ذاته ، وكان هذا الموقف المتطرف يهدف الى التخويف واجبار الجميع على الخضوع والاستسلام •

كان الفرنسيون يخشون كذلك — كما سبقت الاشارة — المغاربة

الذين انضم بعضهم « لأجهزة المخابرات » التابعة للزعماء الافريقيين في حين اشترك البعض الآخر في الحملات العسكرية ضد الفرنسيين • ومنذ تبين للفرنسين حقيقة موقف المغاربة في قيامهم بهذا الدور المزدوج أصبح القواد الفرنسيون يعاملونهم بوحشية وقسوة على أنهم جواسيس• وقد أبدى أرشينار أسفه لعدم القيام بحملات عسكرية انتقامية ضد المغاربة لأنه يصعب تتبعهم في الصحراء ولكن يمكن ضربهم عن طريق وقف تجارة الرقيق في السودان الغربي والتي تعتبر مادة أساسية في معاملاتهم التجارية • وهو سلاح مشهور يستخدمونه فقط ضد أعدائهم لأنه يضر بالطرفين على سواء • لذلك اعتبر الفرنسيون أن أفضل سلاح ضد المغاربة هو تجريد الحملات العسكرية ضد قوى الاتحاد التي يحاربون معها[٢٥] •

وبالرغم من جهود قوى التحالف الا أن الفرنسين وحلفاءهم كانوا يحرزون انتصارات عليهم • وعندما استولى الفرنسيون على كارتا وسيجو توقع البمبرة أن يعيدوا اليهم هذه الأرض بعد تحريرها ، وكان البمبرة يتعاونون مع الفرنسيين على هذا الأمل لكن الفرنسيين صدوهم بطريقة جافة مما جعلهم يتبينون أن الفرنسيين قد استخدموهم لمصلحتهم الخاصة — وبذا أدركوا أن الفرنسيين أسوأ من أعدائهم من الافريقيين لذلك انضموا الى قوى الاتحاد ضد فرنسا وظلوا يحاربونها حتى سقوط دولة التكولور •

وقد مر بالتجربة نفسها تيبا حاكم كندوجو الذي كان قد تعاون مع الفرنسيين من أجل تدعيم مركزه في مواجهة ساموري ، وفي تعاونه هذا كان يدعم عن غير قصد المشروعات الاستعمارية الفرنسية في السودان الغربي • لذلك استجاب تيبا للمحاولات الدبلوماسية للتكولور التي بدأت في ١٨٩٠ وانتهت بالمصالحة مع ساموري الذي أوقف بالتالي

---

(25) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 17.

حملاته ضد كندوجو • وقد جمع الزعيمان قواهما فى محاربة الفرنسيين واستمر تيبا على ذلك حتى توفى عام ١٨٩٣ ــ وبانضمامه للتحالف كانت كل القوى الافريقية داخلة فى الاتحاد •

واجه الاتحاد محنة قاسية بسقوط امبراطورية التكولور ووفاة تيبا فى ١٨٩٣ ، واستمر ساموری فى حروبه ضد الفرنسيين حتى عام ١٨٩٨ وكان يساعده بابمبا ( Babemba ) شقيق تيبا واستمر التعاون بينهما الى النهاية التى كانت فى عام ١٨٩٨ وبسقوط ساموری التهمت فرنسا كل العناصر الباقية سواء داخل الاتحاد أو خارجه[٢٦] •

كان بين الصعوبات التى واجهها الاتحاد عدم الانسجام السياسى والاقتصادى الذى يفرق بين شعوب السودان الغربى وعدم تناسق الأهداف الخاصة بكل جماعة • كان الاتحاد قائما على أساس خليط من الرغبة فى الأستقلال ومعاداة الاستعمار والمحافظة على المصالح التجارية والتضامن القبلى والدينى • وليس من السهل ايجاد الوفاق بين هذه الفئات المختلفة فى الاتجاد • وبالنسبة لمعظم المنظمين للاتحاد كان الاعتبار الأول ، الحاجة للمحافظة على استقلالهم ليس ضد العدو المشترك فحسب بل ضد كل منهم الآخر • وحتى هذا الهدف لم يمكن تحقيقه بسبب تساقط الأقاليم المختلفة فى مواجهة الغزو الفرنسى • ويرجع الفضل فى نجاح الفرنسين الى استغلالهم الماهر للخلافات بين عناصر لاتحاد ، ولكن يأتى فى مقدمة الأسباب بطبيعة الحال تفوق السلاح الفرنسى •

(26) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 26.

# المراجـــع


1. ARCHINARD, Colonel L. : Le sénégal et le Soudan Français ( Alfred Rambaud ( ed. ) : La France Coloniale ), Armand Colin ( Paris, 1893 ).

2. Crowder, Michael : West Africa under colonial rule, Hutchinson ( Lonon, 1968 ).

3. Darcy, Jean : France et Angleterre, cent années de Rivalité colonial, Perrin ( Paris, 1904 ).

4. HALLET, Robin : Africa since 1873, Vol. II, Heinemann Educational Books, ( Ibadan, 1975 ).

5. HARGREAVES, John D. : Prelude to the partition of West Africa, Macmillan ( London, 1966 ).

6. HERTSIET, E. : The map of Africa by treaty, Vol. 11, Frank Cass. ( London, 1969 ).

7. NEWBURY, C. W. : The develompent of French Policy on the Lower and Upper Niger, 1880 - 1898, The Journal of Modern History ( Chicago ), Vol. XXXI, March - December 1959.

8. NEWBURY, C.W. & KANYA - FORSTNER, A.S. : French Policy and the origins of the soramble for West Africa, Journal of African History ( London ), X, 2 ( 1969 ).

9. OLORUNTIMEHIN, Olatunji : Anti - Frenc - n coalition of African states and groups in the Western Sudan, Jounal of West African Studies, University of Ife ( Nigeria ) New Series, No. 3, April 1970.

10. ROBINSON, R. & Others : Africa and the Victorians, the official mind of imperialism, Papermac ( London, 1970 ).

11. UKPABI, S.C. : West Africa and Europe in military confrontation, Journal of the Historical Society of Nigeria ( Ibadan ). Vol. VI, No. 1, December 1971.

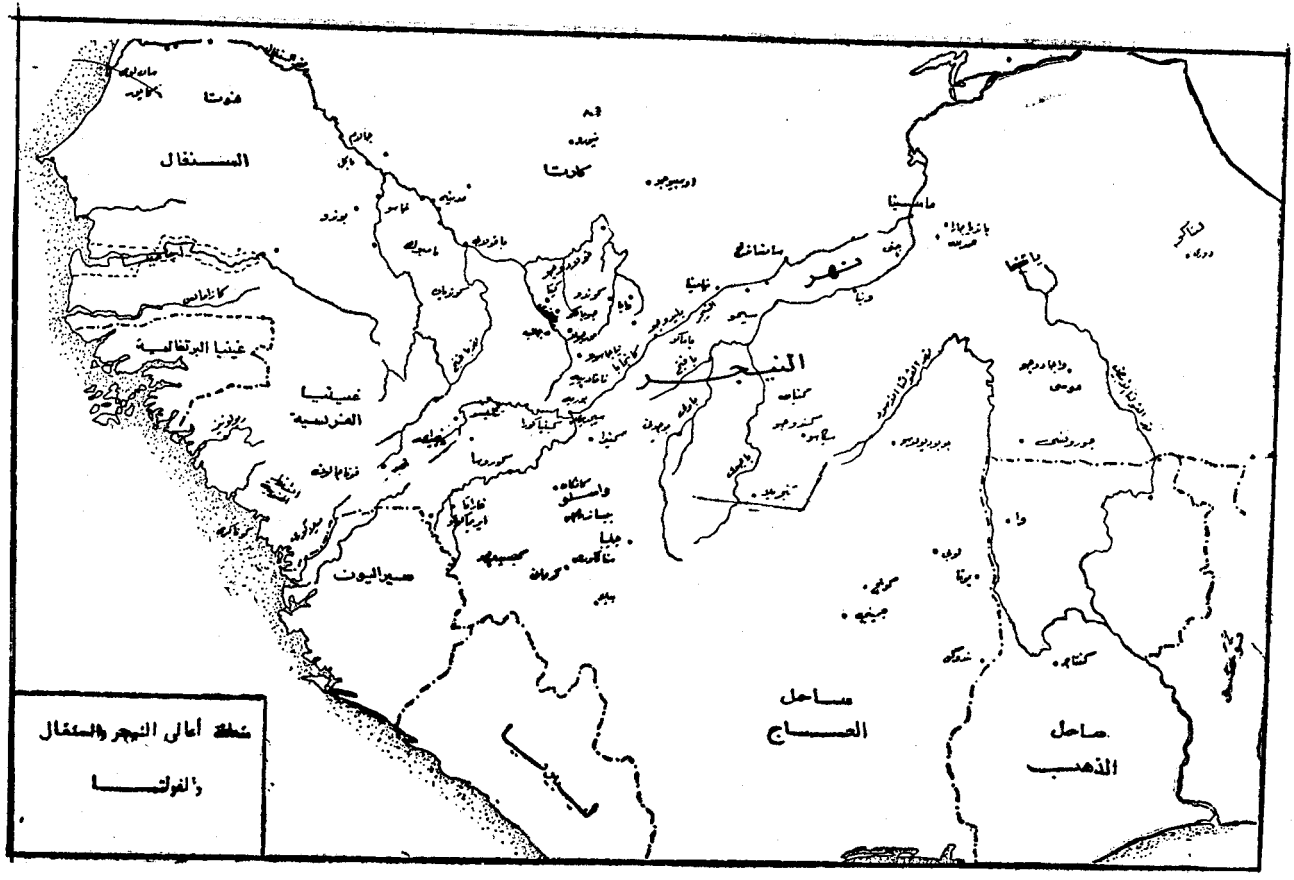
هوتا
السنغال
كارتا
مالي
النيجر
غينيا البرتغالية
غينيا الفرنسية
ليبيريا
ساحل العاج
ساحل الذهب
منطقة أعالي النيجر والسنغال والفولتا